

كتاب الشهر

مؤلف مرجعي في مجال علم نفس الطفل سميرة عبد الباقي: أطفالنا رجال الغد... فأحسنوا تربيتهم

مراحل النمو، حاجات الطفل النفسية والاجتماعية والاسرية، تاريخ تطور علم نفس الطفل، كيفية التعامل مع التغييرات التي يمر بها... كلها محاور يعالجها بتعمق كتاب صدر حديثا في بيروت بعنوان: "علم نفس الطفل في الثقافة والحضارة الغربية: نشأته، تطوره، تياراته، ومبادئه"

الفندري، هناك حاجات معاصرة تفترض وجود باحث يستخدم طرقا موضوعية وعلمية، تهدف الى استقصاء موضوعي لنشأة وتطور علم نفس الطفل. علنا في القريب العاجل نجد انفسنا امام متطوع في هذا المضمار، يضع لهذا العلم تاريخا دقيقا موضوعيا وشاملا. عندها يتحقق الحلم و تنتفس الصعداء، قائلين لقد وجد علم نفس الطفل مؤرخه الحقيقي".

تدخل المؤلفه لاحقا في عالم الاغريق، مشيرة الى انه "عند افلاطون مثلا، نجد الى جانب التربية وعلم النفس الفلسفي، علم نفس ادبيا، ذلك عندما يضم افلاطون في المشهد شبابا مراهقين. اذ كثيرا ما تظهر القيمة الادبية والنفسية لهؤلاء الشبان. وكذلك الامر بالنسبة الى المسرح اليوناني". وتعدد

هنا المسرحيات وصناع المسرح الاغريق الذين اهتموا بالطفولة والمراهقة. تنتقل بعد ذلك الى المرحلة المسيحية وكيف اهتمت هي الاخرى "كفكر" بالطفولة، فاعطته "نبرة" جديدة من خلال اقوال المسيح مثل قوله "دعوا الاطفال يأتون الي". كذلك يظهر هذا الاهتمام في رسائل القديس جيروم واعمال القديس اغسطينس. لاحقا في مرحلة عصر النهضة، شهد الاهتمام بالطفولة دفعا كبيرا مع كاتب مثل فيتورينو دا فلتر (vitorino de Feltre)، في كتابه الشهير la scoula giocosa الذي جمع فيه "بين اللعب والتربية، واعطى اول مفهوم للتربية الفعالة النشطة التي تساعد على تكامل الشخصية والتفتح الحر عند الطفل، كما يلفت المؤلف انتباه المرئي نحو الخصائص النفسية للطفولة والمراهقة واخذها بالحسبان في عملية التعلم". الامر نفسه انسحب على فرنسا. اذ تشير المؤلفه الى انه في بلاد الراين، "اجريت تعديلات في المناهج الدراسية عرفت باسم ديفانتز وهيارونيميت، ما ادى الى ازدهار الكليات الاكثر تحررا ككلية ستراسبورغ. هنا يمكننا القول بان التربية الحديثة تبدأ في عصر النهضة". ومن عصر

في كتاب "علم نفس الطفل في الثقافة والحضارة الغربية: نشأته، تطوره، تياراته، ومبادئه" (دار نلسن - 2019)، تشير الكاتبة والباحثة اللبنانية سميرة عبد الباقي الى الاهمية التي يوليها الغرب للدراسات حول الطفولة خلافا للشرق. هذه الملاحظة توصلت اليها خلال دراستها في الخارج وتحديدا في جامعتي لافال في كيبك (كندا) وبوردو في فرنسا. في شرقنا، لا تحظى الطفولة بالاهتمام البحثي الكافي على الرغم من ان الاشكاليات المرتبطة بالطفولة في المجتمعات العربية الحديثة لا تعد ولا تحصى. يكفي قراءة اي دراسة حول التسرب المدرسي في لبنان، ناهيك بظاهرة عمالة الاطفال والعنف الاسري وغيرهما من الآفات التي تضرب مجتمعاتنا وتقضي على اطفالنا.

ينقسم الكتاب البحثي الى بابين (او مدخلين) اساسيين يتفرع كل منهما الى اقسام عدة. تتناول الباحثة في الباب الاول (علم نفس الطفل في هويته الغربية) مراحل تطور علم نفس الطفل بالنسبة الى الابحاث الغربية، فتبدأ من الحضارة اليونانية/ الاغريقية وصولا الى علم النفس الحديث الذي انسلخ عن الفلسفة ليصبح علما قائما في ذاته. تشير في المقدمة الى ان الاهتمام الكبير الذي وجدته في الغرب لناحية الطفولة، "يُعزى الى اهتمام الباحثين والعلماء، والاطباء، والاطباء النفسيين والمرين والاختصاصيين، لقيمة مرحلة الطفولة، ذلك ان آثارها ستنعكس سلبا ام ايجابا على شخصية الطفل المرتقبة والمنظرة. انطلاقا من هذه الرؤى، يجب تفهم الطفل ومعرفة حاجاته الجسدية والنفسية والذهنية والاجتماعية والتربوية والازمات التي تعترض نموه خلال مرحلة الطفولة".

في معرض حديثها عن اصول علم نفس الطفل بحيث انه حتى اللحظة، ما زال يبنى نفسه شيئا فشيئا، تقول: "مع دخولنا القرن العشرين، والكلام هو دائما للكاتبين الفرنسيين رينيه زازو وغراتوا

خطورة" في تكوين شخصية الانسان من جميع جوانبها. اذ يمر الانسان في هذه المرحلة بجميع التغيرات (الجسدية والمعنوية والنفسية)، فتخرج الانا، مؤكدة ذاتها بعد ذلك ومحقة استقلاليتها لتبلغ سن الرشد حسب الكتاب. اذا هنا يأتي السؤال المهم: ما هو النمو؟ كسؤال بديهي طالما اننا نتحدث عن مراحل يمر بها الكائن الحي/ الطفل.

تشير عبد الباقي الى ان هناك تعاريف متعددة للنمو "منهم من عرفه بأنه عملية البلوغ عند الكائن الحي، بما في ذلك التغيرات والتبدلات المتتابعة، في نسق معين، منذ تلقيح البويضة وحتى البلوغ. ومنهم من عرف هذا المفهوم بأنه ظاهرة فيزيولوجية تدل على الزيادة في حجم الجسم والأعضاء. والبعض الاخر عرفه بأنه التعدد في الخلايا تمييزا له عن التطور الذي يعتبر تنظيما يحصل في جميع الاقسام التي تنتج النمو". هنا تورد الكاتبة العديد من التعريفات الاخرى التي تصب في ذات المعنى والمؤدى، شارحة ايضا فردانية النمو وفرداته، ومؤكدة على ان الاطفال يتفاوتون كثيرا من حيث الفوارق الفردية، بالنسبة الى التكوين الجيني والوظيفي. فنجد ان لكل فرد خصائص وقدرات واستعدادات يختلف بها عن اي شخص اخر. فالفردية تتجلى بوضوح ضمن هذه الخصائص الى درجة انه لا ينمو طفلان بصورة مشابهة تماما. واذا كان الكتاب قد تحدث عن النمو، فانه بالتأكيد لم يغفل الجوانب/ العوامل الاجتماعية الاقتصادية وتأثيرها الواضح على عملية النمو.

تقول الباحثة هنا: "كشفت التجارب والابحاث العلمية، والاستقصاءات الميدانية، التي قام بها العديد من العلماء والباحثين في ميادين علم النفس وعلم الاجتماع وما الى ذلك، عن مدى اهمية مؤثرات العوامل الاجتماعية - الاقتصادية في عملية النمو عند الطفل، خاصة في السنين الخمس الاولى التكوينية من عمره، وغدت هذه العوامل موطن اهتمام الموجهين وعلماء النفس والدارسين"، مشيرة الى اهمية الكثير من العوامل في هذا الاطار كـ"العامل الغذائي" في عملية النمو، او العامل السكني، ومستوى الاهدل الثقافي والاقتصادي، وجو البيئة العائلي في مدها العاطفي الصادق للطفل وقبوله، والحرمان العاطفي المبكر له، واهمية استقرار الجو العائلي والمنزل.

وتولد لديه ميلا للهدم والتخريب والمشاكسة وثورات غضب وبكاء. ولا تكتفي الكاتبة بذلك، فتشرح تأثير الخوف عند الوليد، وكذلك اهمية اللعب بالنسبة اليه. فالخوف الاكبر بالنسبة له هو "فقدان الاهدل وتخليهم عنه"، فيما يأتي اللعب بالنسبة الى الطفل "كالعمل بالنسبة الى الراشد. انه غاية في ذاتها، والطفل عندما يلعب يشعر بلذة ما بعدها لذة، اذ يحصل على الاكتفاء التام. واللعب هو العلاج الوقائي والدواء الشافي في بناء شخصية الطفل وفي تطوره تطورا سليما معافا". في الباب عينه، تحكي الباحثة عن الطفولة الاولى (من سنتين وحتى نهاية الخمس سنوات)، مشيرة الى انها شديدة الاهمية، ذلك انها "فترة الانتقال بين نزعة التركيب الاجمالي التي تظهر في سني المهدي وبين نزعة التركيز على الذات". ففي هذه الفترة، يحصل النمو العقلي واللغوي، وتبرز ازمة المعارضة، وعقدة اوديب. وهي ايضا عمر الاسئلة (الكثيرة). ولان هذه المرحلة شديدة التعقيد، فان الطفل ايضا يصاب بالعديد من "الاعراض الانفعالية" خلالها. تورد الكاتبة امثلة عليها كالمشاكسة والعناد، ونوبات الغضب المزاجية، ومص الابهام، والتبول في الفراش، والعادات والعصبية من بينها قضم الاظفار، والقسوة والاعتداء، والسلوك الطفيلي والصراخ المتكرر، والكذب والسرقة، ومشاكل النوم، والتعب والقلق، والغيرة. طبعا لا تنسى الكاتبة ان تؤكد ان هذه الاعراض الانفعالية قد تتطور وتصبح "مشكلة" حقيقية اذا تعامل معها المرهون بالعنف والعقاب والضرب والتأنيب، بل يجب في اغلب الاحيان تفهمها وتداركها.

في المرحلة الاخيرة من الكتاب، تتناول المؤلفه بدايات المراهقة كمرحلة ختامية لفترة النمو عند الطفل، فتشرح العديد من التغيرات التي تصاحب الطفل في هذا العمر. في المحصلة، هو كتاب بحثي شديد الاهمية، خصوصا لمن يهتمون بعلم نفس الطفل. فطفل اليوم هو راشد الغد. بالتالي ان "فهمنا" لطفل كراشدين وتعاملنا معه على اساس ذلك الفهم يجعلنا قادرين على تجنبه وتجنب المجتمعات المخاطر التي قد يتعرض لها ويمر بها جراء قلة ادراكنا لما يشعر به او يحسه. جانب اخر من المهم الاضاهة عليه هو ان المكتبة العربية تفتقر الى هذا النوع من الدراسات البحثية التي تقوم على منهجية علمية.



غلاف الكتاب.

”
المرحلة المسيحية
ابرزت اهمية الطفل
مثل قول المسيح "دعوا
الاطفال ياتون الي"

وتفرد الكاتبة مساحة للحاجات النفسية/ الاجتماعية للنمو عند الطفل، فتشير مثلا الى ان عدم استقرار الابوين في حياتهما الزوجية يجعل الطفل قلقا غير شاعر بالطمأنينة، فحالات الخوف والنزاع والفراق والطلاق بين الوالدين تؤثر بشكل مباشر على سلامه وامنه. وتنتقل منها الى الحسد والغيرة التي تبدأ عند الطفل منذ السنة ونصف السنة حتى السنتين. يزيد الطفل في انفعالاته عند ظهور منافسه له في الاسرة، يقاسمه الغذاء والعناية، خصوصا اهتمام امه (كالغيرة من طفل اخر في العائلة). امر اخر شديد الاهمية بحسب الكاتبة هو الطعام. اذ مع حدوته، يظهر عند الطفل ميل للقضم والعض والتخريب والحيرة والبكاء. حالات نفسية وجسدية صعبة واليمة تحدث تغييرا مهما في استجابات الطفل وانفعالاته،